الدرس الأول

التاريخ: المفهوم والمغزى

تعد مشكلة المفاهيم في حقل الدراسات الإنسانية واحدة من المشكلات التي تواجه الباحث منذ الوهلة الأولى لشروعه في بحثه، ولاسيما تلك التي تستعمل في التأريخ، وهناك من يراها زائفة على الدوام وغائمة لأن موضوعها نفسه يتحرك دون انقطاع.

إن مفاهيم الفلسفة والتاريخ والحضارة والدين والثقافة والمدنية والعلم هي مفاهيم ملتبسة ومتغيرة باستمرار، ولا يوجد اتفاق بين الدارسين حول معانيها المحددة، وكل تعريف هو تعريف تحكمي لأنه نابع من رأي المفكر أو الدارس حسب رؤيته للظاهرة المدروسة وسوف نرى مدى اختلاف الدارسين حينما يتناولون تلك المفاهيم.

ونحن هنا معنيون في وضع مقاربات أولية للمفاهيم الآتية: التاريخ، الزمان، فلسفة التاريخ، الحضارة، الثقافة المدنية. وقد برهنت التجربة على أن عدم الاكتراث بمناقشة الألفاظ يصاحبه في المعتاد تشوش في الأفكار حول المصطلحات ومضامينها. وهذا ما نشاهده يوميا في أي نقاش بين الأساتذة والطلبة، بل بين الأساتذة أنفسهم من خلط ولبس وإبهام بسبب عدم الاتفاق مسبقاً على المصطلح والتعريف. وتعريف المفاهيم وتحديدها هو الخطوة المنهجية الأولى في الدراسات الأكاديمية، ذلك لأنها تجعلنا على بينة من أمرنا، بشأن معاني تلك الكلمات التي نتحدث عنها، وما دامت هناك كلمات مختلفة فلا بد أن نعرف ونحدد دلالاتها المتمايزة.

التاريخ بالمعنى المعاصر للكلمة، من حيث هو ظاهرة اجتماعية تجسد مجمل أنماط الفعل الإنساني في الحضارة والثقافة والمدنية، لم يكتسب أهميته المعرفية وأهليته الفكرية للدخول إلى مملكة العلوم إلا في العصر الحديث، وذلك بعد أن اكتسب معنى أشمل وأوسع، بحيث بات يعني جميع أشكال الحياة الاجتماعية وتجليات التطور المادي والمعنوي في علاقتها بالأشكال والتجليات الأخرى. بل إن التاريخ كما نعرفه الآن، يعد فرعا متقدما من المعرفة له منهجه ومقوماته. وهنا نقصد معنى محددا للتاريخ هو نمط من أنماط المعرفة العلمية المنضبطة التي نضجت بنيتها المنهجية والنظرية في سياق التطور المذهل للعلم الوضعي.

أولا: مفهوم التاريخ :

استأثر مفهوم التاريخ قديما وحديثا باهتمام المؤرخين والكتاب والفلاسفة وتعددت الآراء والمباحث فيه، حتى وجدنا أنفسنا أمام نتاج واسع يتناول التاريخ مصطلحا وفكرة وفنا وموضوعا وميدانا من ميادين المعرفة الإنسانية. وكلمة التاريخ من الكلمات التي تعرضت إلى سوء فهم لا حدود له بسبب ما ألصق بها من معان متعددة ودلالات مختلفة إذ أخذ الناس يطلقونها على ظواهر وأشياء لا حصر لها من قبيل: تاريخ الكون، تاريخ العالم، التاريخ العام، تاريخ البشرية، تاريخ الطبيعة، تاريخ الإنسان، تاريخ العلم، تاريخ الحضارة، تاريخ المدنية، تاريخ الثقافة، وتاريخ الفلسفة، المنهج التاريخي، التاريخية، الحتمية التاريخية، علم التاريخ، والبحث التاريخي، التاريخ السياسي، التاريخ الاقتصادي، والتاريخ الاجتماعي....إلى آخره من الموضوعات التي تطلق عليها كلمة التاريخ، إذ أن من يعود إلى مادة تاريخ في أية موسوعة يتعجب من عدد الكتب المؤلفة في موضوعها وذلك في لغة واحدة، وسيصعب تقدير حجم كتاب يؤلف اليوم على نمط القسم المخصص للتاريخ في فهرست ابن النديم. وجاء في المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا: "أن التاريخ في اللغة تعريف الوقت، وتاريخ الشي وقته وغايته، التاريخ أيضا علم يبحث في الوقائع والحوادث الماضية". ولعل هذا اللبس الذي يكتنف مفهوم التاريخ هو ما يفسر حيرة الدارسين في فلسفة التاريخ، إذ نجدهم يتساءلون في بدء كل عمل عن: ما هو التاريخ ؟، كيف نفهم التاريخ؟، ما هي فكرة التاريخ ؟.

وفي سياق تتبعنا لمفهوم التاريخ في الدراسات العربية والأجنبية وجدنا عددا كبيرا من التعريفات لا يتسع المقام لذكرها هنا، بل لابد من اختيار بعضها لغرض الإيضاح. وقبل أن نفحص مصطلح التاريخ عند العرب لابد من التمييز بين معنيين لكلمة التاريخ: فالتأريخ (بالهمزة) هو عمل المؤرخ، تدوين وحفظ ورواية أفعال الناس في الماضي، والتاريخ (دون همزة) هو الخبرة العملية الفعلية في عالم الممارسة التاريخية. وهذا التمييز هو ما أخذ به المؤرخ الانكليزي وليم .هـ. وولش (William H. Welch) في كتابه (مدخل لفلسفة التاريخ) ، ويفرق شبنجلر بين التأريخ أو كتابة التاريخ وبين التأريخ أحداثا، فالتأريخ غير التاريخ بل إن الواحد لا يكاد يقوم إلا على أساس إنكار الآخر، ذلك لأن التأريخ صيرورة خالصة، بينما التاريخ لا يمكن أن يقوم إلا بتحويل شيء من هذه الصيرورة الخالصة إلى ثبات، وكلما كان الجزء المتحول من التأريخ كبيرا، كانت عملية التاريخ أيسر. فكأنهما يتناسبان تناسبا عكسيا من حيث الإمكانية، فإمكانية التاريخ نتيجة لسلب اللامكانية عن التأريخ.

ثانيا: لفظ التاريخ

يعد المؤرخ اليوناني هيرودوت (Hérodote) (495-425 ق.م) أول من استخدم كلمة التأريخ (History) بمعنى: "دراسة أعمال البشر في الماضي بهدف إنقاذ تاريخ البشر من النسيان، وحفظ الأعمال الرائعة التي اضطلع بها الهيلنيون والشرقيون بما هي أهل له من شهرة- خاصة تلك التي أدت إلى صدام فيما بينهم". وفي هذا الإطار يأتي المؤرخ الأثيني ثوسيديديس (Thucydide) (460-395 ق.م) الذي عد التاريخ "رواية لقصة الحرب البنوبونيزية". وربما كان المؤرخ بولوبيوس (Polybe) (201-120 ق.م) أكثر وعيا بمهمته حينما كتب مؤلفه "تاريخ العالم" معتبرا "أن معرفة الأحداث الماضية هي بمثابة المقوم الحقيقي للطبيعة البشرية". ويبدو أن أرسطو (Aristote) (384-322 ق.م) قد انطلق من هذا المعنى الفني للتاريخ، حينما عرفه بأنه "رواية للأحداث التي وقعت"، أي أنه وصف للفرد من خلال مفاهيم كلية، وهذا ما جعله يضعه في المرتبة الثالثة بعد الفلسفة والشعر.

ولابد من الإشارة هنا، أن الفهم الفلسفي للتاريخ، من حيث هو فعل الإنسان الخلاق وخبرته المتراكمة في المدنية والحضارة والثقافة، ونشاطه المستمر في التقدم والتطور والارتقاء، لم يكن واضحا في الفكر اليوناني، بل بدا مشوبا بغلالة أسطورية عند السفسطائيين وسقراط (Socrate) وربما أفلاطون (Platon).

ثالثا: التأريخ عند العرب

لفظة "التأريخ" عند العرب لم تكن تطابق كلمة (History) اليونانية، كما أن الكلمة لم ترد في القرآن الكريم بل احتوى على مادة مقابلة يمكن أن يفيد في تفسيرها معنى تاريخي وهي مثل (أساطير الأولين) أو (أنباء) أو (قصص)كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]. وهناك آيات عديدة تشير إلى التاريخ، بمعنى الفائدة والاعتبار والموعظة والأخبار، كما في الاية التالية:﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ الله ليعجزه مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[2]. وفي الاية

---

1. سورة يوسف، الآية 111.

2. سورة فاطر، الآية 44.

الاتية: ﴿كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾[3]، واخيرا في هذه الاية، يقول الباري عزل وجل: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هٰذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَذِكْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

وكلمة التأريخ من حيث الاصطلاح تعني الزمن والحقبة ولا يظهر هذا الاصطلاح بالمعنى الذي ذكره "محمد بن يحيى الصولي(ت: 336هـ/946م) "تأريخ كل شي من حيث اللغة غايته ووقته الذي ينتهي إليه، ولهذا يقال فلان تأريخ قومه في الجود، أي الذي انتهى إليه، وتأريخ مصدر من "أرخ" بلغة قيس وهو اللفظ الشائع عند العرب أو "ورخ" بلغة تميم. ويزعم بعض المؤرخين أن لفظ (تأريخ) مشتق من (تأريخ) العبرية بمعنى القمر أو (يرخ) بمعنى الشهر، وعلى أساس هذا الزعم يكون معنى لفظ (تأريخ) التوقيت أو تحديد الشهر. ويذهب الكاتب الانكليزي فرانز روزنتال (F.Rosenthal) في كتابه (علم التأريخ عند المسلمين) إلى أن: (لفظ "تأريخ" تعريب لكلمة "ماه روز" الفارسية ومعناها حساب الشهور، والأيام أو التوقيت حسب القمر). أما المستشرق الانكليزي هاملتون جب (H.Gibb) نقل عن البيروني في كتابه (الآثار الباقية) وعن الخوارزمي في مصنفه (مفاتيح العلوم) تأكيدهما خطأ رأي فرانز روزنتال مشدداً على الأصل السامي العام لكلمة (تأريخ) في العبرية بمعنى (تحديد الوقت).

ولقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أول من استخدم هذا الاصطلاح- نعني التاريخ بمعنى الزمن والمدة- في سنة 23هـ/ 643م منذ أن أدخل التقويم الهجري ثم تطور مدلول الكلمة بعد ذلك إلى أن أصبح ينظر إلى التاريخ من حيث هو ما يبحث فيه عن وقائع الأحداث في الزمان والمكان، وهذا ما نجده عند معظم المؤرخين العرب أمثال: ابن كثير (ت: 774هـ/1373م)؛ السخاوي (ت:902هـ/1497م)؛ الطبري(ت: 923هـ/1517م)؛ المسعودي(ت: 956هـ/ 1549م) وغيرهم، وربما كان عبد الرحمن ابن خلدون (ت: 808هـ/1406م) هو أفضل من عرف التاريخ بقوله، إنه: "خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتآنس والعمران وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران لطبيعته من الأحوال". ويعد هذا التعريف من أجود التعريفات التي تناولت حقيقة التاريخ ومعناه، فهو

3. سورة طه، الآية 99.

4. سورة هود الآية: 120

تعريف فهرسي وظيفي يلخص به ابن خلدون محتويات التاريخ ويختصر وظيفته من حيث هو تدافع وتغالب وحرب وصراع.

وقد عرضت دائرة المعارف الإسلامية أبعاد مصطلح التأريخ فلاحظت استنادا إلى مصطلح التأريخ العربي أن مصطلح التأريخ ينصرف إلى معنى عرفته بـ (التأريخ العام) أي تسجيل أهم حوادث الأمم بصيغة الحوليات بمعنى تدوين الحوادث عاما، وكذلك بمعنى الأخبار مرتبة بحسب العصور. وقد اختلفت تعريفات التاريخ بقدر اختلاف المؤرخين والدارسين، فكل يرى التأريخ من زاوية اهتمامه، ويمكن إجمال الاتجاهات الرئيسة في تعريف التاريخ بما ياتي:

1. اتجاه يرى أن كلمة (تأريخ) تدل على جميع الوقائع الطبيعية والاجتماعية في الكون منذ نشأته حتى الوقت الحاضر.
2. اتجاه يرى أن كلمة (تأريخ) تدل على ما استطاع الإنسان أن يعرفه من الحوادث التي وقعت في الماضي في الطبيعة والمجتمع.
3. اتجاه يرى أن كلمة (تأريخ) تدل على جميع الحوادث التي وقعت نتيجة للنشاط الإنساني.

رابعا: معاني ودلالات التاريخ

ولقد اكتسب التاريخ معاني ودلالات جديدة ومتنوعة في الثقافة الحديثة والمعاصرة، إذ لم يقتصر التاريخ على اهتمام المؤرخين، بل أخذ الفلاسفة يتخذون من التاريخ موقفا نقديا فلسفيا، فلم يعد مجرد سرد للأحداث الماضية ووصف للمعارك وسير الملوك والأبطال، وإنما اشتمل على شتى مظاهر الخبرة الإنسانية في وحدتها الكلية بعدها نسيج المغامرة الإنسانية في الماضي والحاضر والمستقبل. إن التاريخ يجب أن يكتب عن كل مظاهر النشاط الإنساني مجتمعة كما يكتب عن كل منها منفردة، وأن يكتب على نحو تركيبي كما يكتب على نحو تحليلي.

ويهمنا هنا أن نشير إلى المعاني التي اكتسبها التاريخ في نظر الفلاسفة. فالتاريخ عند الفرنسي فولتير(Voltaire) (1694-1778م)، وهو أول من استخدم مفهوم فلسفة التاريخ، على أنه: "مسار ارتقاء الإنسان من الهمجية إلى المدنية"، وفي هذا السياق يأتي تعريف نيكولاس دي كوندرسيه (N.DeCondorcet) (1743 - 1794 م) للتاريخ بأنه: "تاريخ تقدم العقل البشري". ويعرف الالماني جورج ف. هيغل (G.W.F.Hegel) (1770-1831م) التاريخ من حيث: "هو تاريخ تقدم الوعي بالحرية"، أما كارل ماركس (K.Marx)

(1918-1883م): فيرى"التاريخ كله حصيلة نشاط الناس الساعين لتحقيق أهدافهم"، أي أن كارل ماركس حدد الاقتصاد وليس السياسة مفتاحا لباب تقدم الإنسان من خلال قانون الصراع الطبقي. وفي ذات الاتجاه، اندفع ليوبولد فون رانكي(L.V.Ranke) (1795-1886) الى وضع قواعد للبحث التاريخي محاولا جعل التاريخ فرعا مستقلا من فروع الدراسات العلمية، له ادواته المنهجية التي تضفي عليه خصائص احترافية تضعه في مرتبة اللعلوم النظرية البعيدة عن الطابع البلاغي للكتابة الادبية.

ان النظر إلى التاريخ من حيث هو تقدم وتطور وارتقاء قد هيمنت بأفقها على الروح الثقافية العامة للقرن التاسع عشر الميلادي مثلما أضفت الفلسفة اسمها على القرن الثامن عشر الميلادي. وفي بداية القرن العشرين يتبدل معنى كلمة(تأريخ) تبدلاً كلياً، وجرت جهود جادة للإجابة عن السؤال الاتي:(ما هو التاريخ؟)، ذلك لان العصر الحالي هو أكثر العصور نزوعاً إلى التفكير بصورة تاريخية، والإنسان المعاصر يعي ذاته إلى درجة لم يسبق لها مثيل،

وعلينا إدراك أن الماضي والحاضر والمستقبل مترابطون معا في السلسلة التاريخية المتواصلة. وهذا الترابط اخلط الامور عند البعض من اهتموا بماهية التاريخ. وهذا ما دفع الفيلسوف الايطالي بينيديتو كروتشه (*Benedetto Croce*) (1866-1952) إلى القول: "بان التاريخ بأجمعه هو تاريخ معاصر"، وكذلك يعلن المؤرخ الأمريكي كارل بيكر(Carl L.Becker)(1873-1945)، بان: "حقائق التاريخ لا تتأتى لأي مؤرخ ما لم يقم هو بخلقها"، ويشير الفيلسوف المؤرخ مايكل اوكشوت(Michael Oakeshott)(1901-1990) من:" أن التاريخ هو تجربة المؤرخ، وأنه ليس من صنع أحد سوى المؤرخ". والتاريخ عند شبنجلر (Oswald Spengler) (1880-1936)، هو تعاقب حيوي حتمي للحضارات. ويعد المؤرخ الانكليزي هـ. فيشر (H. Fisher) (1865-1940) أبرز من انتقد فكرة التقدم الحتمي للتاريخ، معبرا عن خيبة أمله تجاه فشل الأحلام الليبرالية بعد الحرب العالمية الأولى، بقوله: "إن هناك رجالا أكثر مني فطنة وأكثر علما قد أبصروا في التاريخ طريقا مرسوما متسقا أو منوالا حتميا أما أنا فلا أرى مثل هذه الضرورة بل أرى ظروفا عارضة تتابع بعضها بعض كالأمواج موجة تتلو موجة".

في حين يرى أرنولد توينبي (A. Toynbee) (1889-1975م) في التاريخ بأنه إنجاز للخطة الإلهية، وهو إبداع الله في حركته، من الله منبعه وإلى الله غايته، وقد تأثر في هذه النزعة الدينية بالقديس أوغسطين. والتاريخ عند فرانسيس فوكاياما (F. Fukuyama) : "هو الانتصار النهائي لليبرالية الأمريكية". في حين يرى الكاتب صمائويل هنتجتون

(S.P.Huntington) هو: " صدام الحضارات" ويذهب الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي (R.Garoudy)(1913-2012) إلى تعريف التاريخ بأنه: "حوار بين الحضارات".

كما كان يؤمن بأن التاريخ إنجاز للخطة الإلهية، وهو إبداع الله في حركته، من الله منبعه وإلى الله غايته. وقد تأثر في هذه النزعة الدينية بالقديس أوغسطين

وعند المؤرخين العرب اكتسب التاريخ معاني ودلالات جديدة ومتنوعة، فقد اعتبره حسن عثمان وهو من أوائل من كتب في منهج البحث التاريخي أنه "بحث واستقصاء لحوادث الماضي"، في حين ينظر إليه أسد رستم على أنه "عملية نقد وتحقيق لهذه الحوادث"، فيما ربط الدكتور عبد العزيز الدوري ما بين "البحث عن الحقائق وتدوينها من جهة، وبين عملية تفسير الحقائق وربطها من جهة أخرى".

ومن كل ما تقدم نخلص إلى تعريف للتأريخ على أنه: "سياق نشاط وعمل الإنسان في أثناء تكيفه وردود أفعاله إزاء المشكلات التي تجابهه في حياته على مختلف الأصعدة الحضارية والثقافية والمدنية".

وأخيرا، لابد من الإشارة أن ثمة فارقا بين التاريخ والفكر التاريخي، فالتأريخ في أبسط معانيه يعني التقليد الفطري لدى كل إنسان في حرصه على معرفة ماضيه وتذكره، هذا المعنى للتأريخ عرفه الإنسان منذ أن عرف الكتابة وراح يسجل أحداث حاضره وأخباره، ليقرأها في المستقبل أناس لا يعرفهم وكان الإنسان يحاول عن طريق التسجيل أن يخلد ذكره ليقرأه اللاحقون من بعده. أما الفكر التاريخي فهو يتمثل في الموقف العقلي الذي يتخذه الإنسان إزاء الحوادث التاريخية، كان قد أخذ يتبلور منذ أقدم العصور في الشرق القديم واليونان والعصور الوسطى لكنه لم يتحول إلى نظرة فلسفية كلية متسقة إلى التاريخ ومعناه إلا في العصر الحديث، وذلك بعد توافر جملة من الأسباب والشروط سوف نشير إليها لاحقا.